اوراق من مفكرتي

ما دامت هذه الاوراق شأنا خاصا للغاية، وما دامت حديقة وحشية موصودة في وجه الانس والجن على حد سواء، فلا بأس علي اذن، ان انا مارست فوضاي الزمنية والذهنية على هواي، مستبدلا ايام عقارب الساعة بأيام ابخرة النفس، طارحا عن جسدي وروحي معا، قوالب الوقت والانضباط..

من عيوبي - وهي اقل من اصابع اليد الواحدة، بدون شك - انني انسى بصورة مخزية تماما، لذا فلن تكون هذه الشهريات التي احاول تدوينها مرتبة حسب اتيكيت الرزنامة، فانا الان في حديقتي الوحشية، ولا جدوى من اجهاد الذاكرة..

(١)

في التاسعة من صباح هذا اليوم فقدت القدرة على الاسترسال في النوم.. فجلبة محمود درويش ومحمد ميعاري تكاد تغلق البيت. محمود يغني امام المرآة، متفرجا على نفسه في المايوه الذي يرتديه لاول مرة في حياته، ومحمد يقسم، بحرارة المحامي الشاب، انه رابح

القضية هذا اليوم بلا ادنى شك.

كالعادة، وصلنا متأخرين الى مكتب "الاتحاد" .. ومنذ بدأنا نصعد الدرج، بدأ شيء من الخجل يصعد في اعماقنا .. دلفت الى مكتبي ودلف محمود الى مكتبه .. لم يفعل الرفيق الدكتور اميل توما، رئيس التحرير، اكثر من الرد على تحية الصباح بلهجة عاتبة اشتركت فيها نظارته الصارمة، اما قلمه فقد واصل العمل الذي بدأه منذ ساعتين تقريبا.

بعد انتهاء العمل بدأالحوار المألوف: أين نتناول الغداء؟ واصر على ان المنزل هو افضل مكان لهذه العملية المضنية، ويقسم محمود - كالعادة - ان تكون هذه اخر مرة نتناول فيها غداءنا في المطعم..

محمود .. الى البحر!؟

وانا .. الى السينما ..

في ساعات المساء بَحَثنا عن ام كلثوم، وسرحت في عالم هانس اندرسون العجيب .. هذا الشاعر الدنمركي الذي خلدته اقاصيصه الساحرة..

فاجأنا بعض الاصدقاء والصديقات بزيارة ليلية ..اختلط «الباس» بـ "السوبرانو" وطاب لي ان انشد:

هنا ميسلون، فعوجوا جميعا نحيّي ثرى ميسلون.
هنا استبسل العُرب ضد الغزاة، هنا استشهد الباسلون.
وكان لجيش الغزاة انتصار ونير علينا وطيد.
وكان على العرب اما الخنوع واما النضال العنيد.
وبتنا نقاتل ليلاً نهاراً الى أن بلغنا الأرب.
ولن نترك السيف أو نستردّ جميع حقوق العرب
هنا ميسلون ..

بعد انصراف الشلة الليلية بقليل، حضرت الشرطة بناء على دعوة تلفونية من الجارة السيدة ليفي، وبعد تحقيق قصير اجراه معنا شرطيان بالتمام والكمال، انصرفا دون استدعائنا للمحكمة .. لكنهما أكدا قبل انصرافهما اننا لسنا قذرين وقبيحي المنظر - كما اوحت السيدة جارتنا ..

لدقائق معدودات، تبادلنا نظرات فيها من كل شيء .. وحاولنا ان ننام ..

(٢)

اليوم بدانا حملة البحث عن منزل اخر .. محمد سيتزوج قريبا وسيواصل السكنى هنا. كابرنا وزعمنا انه مقدم على ورطة، وعذبناه بكل ما نعرفه من الطرائف عن الزواج والمتزوجين، ولكن ورطة حقيقية كانت تعذبنا.. ورطة المنزل الاخر ..

جسنا انا ومحمود شوارع حيفا، ندخل مكتب سمسار منازل ونخرج من آخر.. رحبوا بنا في البداية واكتشفوا هويتنا في النهاية .. وواصلنا البحث عن منزل في اعلانات الجرائد وفي احلامنا الواعية: ان الدنيا غير الدنيا!

حصلت على عنوان. اتصلت تلفونيا بصاحب المنزل واتفقنا على ان ازوره في المساء لنتفاهم. الاجرة الشهرية في الاعلان ٢٠٠ ليرة اسرائيلية لا غير. وحين سمع اسمي اصبحت الاجرة ٣٥٠ و .. ماذا مع النظافة؟ انه منزل محترم!

- لم اسكن، قبل، في اصطبل يا سيدي!

ويظهر على شاشة التلفزيون الاسرائيلي شاب يقرا نشرة الاخبار

بالعربية.. سالتني السيدة ربة البيت :

- ما رأيك في هذا المذيع .. الا توافقني على انه جميل الصورة عذب الصوت؟

- انه اخي!

- ولكنه درزي!

- ومع هذا فهو اخي، ابن امي وابي!

ودب الحماس في اعضاء الرجل صاحب المنزل فهتف وكانه يقطعني ولاية:

- ما دام الامر كذلك فانني «ارمي» لك عشر ليرات من الاجرة!

صعد الدم الى فودّي حارا مضطربا .. لم اتلق في حياتي إهانات كثيرة من هذا الطراز، فنهضت منصرفا .. لم بستاجر ذلك المنزل.

(٣)

اليوم، رأيت شابا مصابا بالشلل جالسا في كرسي ذي عجلتين على مقربة من السوبرماركت. عشرات الناس مروا به دون اكتراث. دنوت منه وسالته: هل استطيع ان اساعدك؟

- اكون شاكرا لو ساعدتني بدفع الكرسي الى شارع هنفئيم (الانبياء) .. فعلت ذلك بلا تردد، وحين وصلت به الى المكان الذي اراده التفت الي بوجه يطفح بالامتنان، وقال وانا اكاد ابصر قلبه على شفتيه:

- شكرا لك يا سيدي .. شكرا جزيلا .. حقا انك يهودي جيد!

(٤)

رن جرس التلفون في المكتب. كان المتكلم من الجانب الاخر ضابط شرطة معروفاً: نريد ان نتحدث معك حول ديوانك الاخير الذي صادرناه وحول الملف المفتوح ضدك ..

حين وصلت مركز البوليس وجدتني محاطا باكثر من خمسة اشخاص هم مركز اعصاب شرطة حيفا..

- أين كنت، وماذا عملت من تاريخ كذا الى تاريخ كذا؟ من هم الاشخاص الذين قابلتهم من الضفة الغربية والمناطق (المحتلة) الاخرى؟

- التهمة الموجهة اليك اليوم خطيرة جدا .. انت متهم بالاشتراك مع اخرين في نسف منشأة النفط في ميناء كيشون على خليج حيفا.

- ليس لهذه التهمة اي اساس من الصحة!

-حسنا، أنت معتقل قيد التحقيق .. هل تريد ان تعلم احدًا بأمر اعتقالك؟

- يهمني ان يعرف بذلك رفاقي في هيئة تحرير «الاتحاد».

ورافقوني الى غرفة التوقيف التي احفظها عن ظهر قلب .. ففي هذه الغرفة قضيت اكثر من نهار واكثر من ليل .. في صباح الخامس من حزيران ١٩٦٧ كنت انا والرفيق زاهي كركبي عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الاسرائيلي والرفيق على عاشور زميلي في هيئة التحرير، اول من دخلها من سجناء العدوان السياسيين، ثم هلت علينا طلعات الشاعر سالم جبران والمحامي علي رافع وآخرين من رفاقنا واصدقائنا..

(٥)

في الخامس من حزيران ١٩٦٧ كان شريكي في الكلبشة، ونحن في الطريق الى سجن الدامون، علي عاشور، سجين سياسي مثلي .. اما اليوم، وانا في طريقي الى سجن الجلمة، فان شريكي في الكلبشة قواد وحشاش معروف جيدا في اوساط العالم السفلي!! وهو معروف لي ايضا! من اين؟ قبل اشهر اشتريت غرفة على سطح احدى البنايات العالية في المدينة، وبعد ان نقلت اليها امتعتي اكتشفت ان "جاري" القاطن في الغرفة الثانية على السطح نفسه هو "الرجل" نفسه .. القواد والحشاش المعروف جيدا في اوساط العالم السفلي..

استدعيت للتحقيق في جناح خاص من سجن الجلمة.. وفي الغرفة نفسها حققوا معي قبل مدة بتهمة الاتصال بمنظمة «فتح» وتشكيل مجموعات مقاتلة داخل اسرائيل.

- انت تعرف مدى خطورة التهمة الموجهة اليك الان؟

- اجل اعرف ذلك .. واعرف ان التهمة باطلة من اساسها.

قال محقق ثان: هل كان لقاؤك بفلان وفلان مبرمجاً؟

- كلا..

وانهالت علي عشرات الاسئلة والملاحظات.

وفجأة قال محقق ثالث: انا اكرهك وانت تكرهني، اليس كذلك؟

- اعرف انك تكرهني. وليكن ذلك هنيئا مريئا عليك.. اما انا فلا أكرهك لكنني لا اوافق عليك.

- هل رأيت لغما وعبوات ناسفة؟

- نعم، رأيت!

وتنبهت جميع ملامحه وهو يسال وكانه مقدم على فتح مبين:

اين؟

ـ في السينما ..

ـ اعني في الواقع .. على الطبيعة!

ـ رأيت القنبلة اليدوية وقنبلة الدخان، وقذائف الهاون والاسلحة الاوتوماتيكية الخفيفة و ..

ـ كفى ..

واستمر التحقيق، واختتمه شاب عصبي حاد المزاج، جاف الصوت والنبرة:

ـ حين تثبت هذه التهمة ضدك فستدفع ثمنا غاليا.

(٦)

اطل علي احد السجناء من بين القضبان ..

ـ هل تعلم ان هذه الغرفة التي سجنوك فيها هي غرفة أيخمان؟!

ـ لم اعلم ذلك من قبل، مع انني "زرت" هذا السجن .. شكرا على هذه المعلومة. . وانصرف السجين مبتسما، واستلقيت على التخت المعدني الوحيد المثبت باسمنت المصطبة، وسرحت في فكرة ذاهلة: انا .. في غرفة أيخمان؟؟ يا لغرابة التاريخ، احيانا!

(٧)

تعرفت اليوم الى عدد من السجناء .. حوالي عشرين سجينا سياسيا من الهضبة السورية المحتلة .. ثلاثة من قطاع غزة .. واحد من الضفة الغربية .. ما اروع ان يتمشى هؤلاء جميعا في ساحة السجن

معا، وامام ناظري .. لا يعرف هؤلاء الاخوة ماذا يفعلون بي الان .. رغبة حادة في البكاء تكاد تفقدني السيطرة على نفسي .. لا علينا! اننا نقيم هنا نوعا فريدا من "الوحدة العربية"!

(٨)

وجدتني اليوم اذرع ساحة السجن مع عدد من المتهمين بالقتل .. كل يروي قصته وامكانيات الحكم عليه .. وهم جميعا غير يائسين .. قال احدهم:

- من يدري، قد يتحقق السلام قريبا، ويطلق سراحنا في افراج عام، اكراما للسلام!

كنت اضحك بصوت مسموع، وانا افكر بمرارة ساخرة:

- هل يعقل ان لا يفكر جديا بالسلام في هذه البلاد، غير الشيوعيين والمحكومين بالسجن المؤبد؟

(٩)

صباح الخير ايها الرفيق سميح.. نحن الاربعة من الشبيبة الشيوعية.. حكم علينا بالسجن لمدد تتراوح بين ٨-١٠ اشهر بتهمة كتابة شعارات على جدران قريتنا عرابة!

أذكر ذلك جيدا.. كانت تلك الشعارات من طراز:

"انسحبوا نحو السلام!" و«نفذوا قرار مجلس الامن الصادر في ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٦٧".

حقا ان الدعوة للسلام اصبحت تكلف ثمنا باهظا في هذه البلاد!

(١٠)

في السجن تكتسب الاشياء قيمة خاصة. السيجارة من النوع الرديء تعتبرها كنزا ثمينا .. وعود الثقاب ذخر يجدر بك الا تفرط به ..

اليوم حمل الي سجين عربي شاب من احدى قرى الجليل منشفة وفرشاة اسنان واصبعا من معجون "شيمن".

احد سجناء الهض ٣ السورية المحتلة حمل الي سلة من الفاكهة ..

سجين يهودي شاب حمل الي صحيفة قديمة وكتابا .. وسرعان ما استدعاه شرطي سمين ليوبخه على فعلته:

- ماذا تفعل عند ذلك الشاب؟ انه مغامر خطير، ويجدر بك ان تبتعد عنه!

سجين آخر حمل الي مشطا وصابونة .. منقولاتي في السجن تزداد، وثروتي تتضخم، ومستوى معيشتي يرتفع! هذا امر جميل.. فلأقرأ هذا الكتاب .. على الغلاف صورة فتاة زنجية عارية .. العنوان "تعال الي يا ابيض اللون!" .. تكون لدي انطباع بانه من الكتب الرخيصة التي يزجي بها السجناء والعاطلون والكسالى اوقات فراغهم، لكن الكاتب "الن بيتون" الذي ملأ العالم بكتابه الرائع "ابك يا وطني الحبيب" والذي فضح فيه عنصرية البيض في جنوب افريقيا .. هذا الكاتب لا يمكن ان ينحدر الى الدرك بهذا التطرف في السرعة .. وباشرت القراءة فاكتشفت انني أسأت الظن، فقد وجدتني أمام رائعة ادبية تصور العذاب الذي يتعرض له رجل ابيض يقع في حب صبية

زنجية في جنوب افريقيا، وكيف ان هذا الحب المحرم دمر الشاب واسرته كلها..

(١١)

تحدثت اليوم مع سجين من الجولان عن حزبي وعن ماركس والاستعمار وديالكتيك هيجل المثالي.. سجين آخر اصر علي ان أقرأ بعض قصائدي فقرأت له مقطوعة عن خاتمة الحوار مع سجان:

من كوة زنزانتيَ الصغرى
أبصر اشجارا تبسم لي
وسطوحا يملأها اهلي
ونوافذ تبكي وتصلي
من اجلي..
من كوة زنزانتيَ الصغرى
ابصر زنزانتك الكبرى!..

.. في ورقة مزيقة من جريدة "معريب" قرات اليوم قصة لكاتب مصري أسمه على ما اذكر "حسني عبد الفضيل" .. ترجم القصة الجنرال المتقاعد "متتياهو بيلد" وقدم لها أيضا بقوله ان هذه القصة تصف "مأساة الشعب المصري الازلية" .. مأساة الضياع وفقدان السيطرة على تسيير اموره..

لكنني لم اعثر في القصة على ما ذهب اليه الجنرال متتياهو بيلد من توجه سلبي يائس، فهي قطعة فنية جميلة تصور حياة الانسان المصري الجديد الذي يبني بلاده جنبا الى جنب مع صديقه الخبير

السوفياتي .. وعملية البناء هذه لا تتم بدون ضحايا، وهكذا يسقط احد ابطال القصة قتيلا في حادثة عمل مما يشيع الحزن في نفوس زملائه، ولكن العمل يستمر ..

(١٢)

ـ في ساعة مبكرة من هذا اليوم تذكرت افراد أسرتي واحدا واحدا، وشعرت برغبة في الاعتذار اليهم عن المتاعب التي يشاركونني اياها سواء شاءوا ام ابوا .. تذكرت ابن اخي الصغير وهو يرفض بعصبية قطعة النقود الصغيرة ويصر على قطعة كبيرة ليشتري الحلوى له ولأخته .. تذكرت رفاقا من الناصرة وحيفا وتل ابيب فابتسمت راضيا مرضيا.

قرأت قصة اميركية من "ادب" الغرب المتوحش.. عمقت كراهيتي لرسل الانعزالية وشريعة الغاب الذين يبشرون بالذاتية المنفصمة عما يحيط بها، والمؤمنة بمبدأ: اذا شئت ان تعيش سعيدا فلا بد لك من اتعاس الاخرين!

(١٣)

ـ اليوم اطلقوا سراحي بعد ثلاثة عشر يوماً من الاعتقال والتحقيق.. اطلقوا سراحي دون كفالة.. طيلة فترة اعتقالي "طالب" بي رفاقي بلا لأي .. الرفيق النائب توفيق طوبي قدم في الكنيست استجوابا لوزير الشرطة حول اعتقالي.. الرفاق المحامون حنا نقارة ومحمد ميعاري وعلي رافع أقلقوا الشرطة بالاستفسار عني.. حسن ان

تشعر وأنت في السجن بانك لست وحيدا في المعركة. آخر ما قلته لمدير شرطة حيفا قبل عودتي الى المكتب:

ـ أتعلم؟.. أنا أعلم انني أعيش في حقل مزروع بالالغام!

(١٤)

ـ منذ اكثر من شهر لم أتمكن من زيارة قريتي "الرامة".. واليوم طلبت تصريحا من الشرطة لزيارة اسرتي واصدقائي هناك..

الجواب: لا!

(١٥)

ـ في العدد الاخير من المجلة الاخيرة قرأت في الركن الاخير من الصفحة الاخيرة نبأ موتي ..

واصلت الحياة .. ضاحكا من كل قلبي!

(١٦)

ـ أدرت قرص التلفون .. من الجانب الاخر جاء صوت امراة ..

.. شاهدنا فيلما اميركيا عن المغامر اليانكي الذي يهرب الاسلحة الى دولة في اميركا اللاتينية .. وتنشب في تلك الدولة ثورة يحمل رجالها الاعلام الحمراء .. ويتضرع قادة تلك الدولة الى المغامر اليانكي بان يمد لهم يد المساعدة ليخلصهم من "الوباء الاحمر" .. لكنه "يتبغدد" مؤكدا انه لا يرغب في التدخل في شؤونهم الخاصة(!)

لكنهم "يصلون" اليه راجين ان يقبل بالتدخل في شؤونهم الخاصة(!) ونزولا عند رغبتهم يقضي على الثورة الحمراء و"يخلص" البلاد، فيسعد من فيها من العباد، ويعيشون بالتبات والنبات ويخلفون صبياناً وبنات!

(١٧)

- شاهدت فيلما اميركيا رائعا قام ببطولته بيرت لانكستر.. انه يفضح زيف المجتمع الاميركي.. فالمليونير الذي يصاب بنكسة اقتصادية تودي بثروته، يتخلى عنه جميع اصدقائه وصديقاته، الذين كانوا يترامون عليه كالذباب في ايام ثرائه ومجده.. ولم يسلم حتى من عداء بناته اللواتي كان قد وضع بين ايديهن جميع امكاناته وغمرهن بحبه ورعايته..

زارني الشاعر العبري التقدمي "ييبي" وعرض علي فكرة احياء أمسية شعرية يشترك فيها شعراء عرب ويهود معادون للحرب ..

رحبت بالفكرة، لكن حين طلب مني الا أكون "عنيفا كعادتي"، سألته عما اذا كان راغبا في فنجان قهوة ..

(١٨)

- ترجمت اليوم عددا من القصائد العبرية المعادية للحرب .. اسعدني ان افعل ذلك. وترجمت عن الانكليزية اغنية سوفياتية عن الوطن .. كادت الدموع تطفر من عيني وانا اترجمها .. لماذا لا احس بروعة الوطن في أغاني مطربينا العرب؟!

كتبت اليوم قصيدة:
أعيش بالدّين -
وبالتقسيط
أموت يا مولاي
ومن ثقوب الناي
ألفظ انفاسي،
وللقصائد التحنيط -

(١٩)

- اخبار اليوم مثيرة للقلق .. الاطر السوداء في الصحف اليومية كثيرة .. غلة الموت اكبر من غلتنا..

كل جلبة الابحار الى القمر لا تثير في غير التقزز .. زنوج اميركا لم "يبحروا" الى منازل افضل، واللاجئون العرب لم "يبحروا" الى وطنهم .. لا بد من التطور التكنولوجي والانجازات العلمية. لكنني اريد ان اعيش حتى اتمتع بها حقا..

(٢٠)

- كتبت اليوم قصيدة:
لن تهوني
لن تهوني أبداً يا مجدلية
لم أزل اغسل رجليك بدمعي
ودمي .. يا مجدلية

من قرون الهمجية
لقرون الهمجية
فاسلمي، سلطانة العشق
اسلمي لي واقبليني
سادناً في حضرة الحب المدّمى؟ ..
لن تهوني
لن تهوني أبداً .. يا مجدلية؟

*

- لا اعلم اذا كان الشهر الاخير ثلاثين يوما او واحدا وثلاثين يوما .. لكنني اعلم جيدا انني راغب في الحياة .. راغب فيها حتى اليوم الثاني والثلاثين من الشهر..